جعفر الصادق وميدان العلم

ألمّت المحن بآل البيت وأحاطت بهم النكبات والكوارث منذ أن استشهد "الحسين بن علي" سيد شباب أهل الجنة في كربلاء، في العاشر من المحرم سنة 61هـ = 681م، وجرّت هذه المحنة سلسلة من المحن والمصائب التي نزلت على أبناء "فاطمة الزهراء"، فاستشهد "زيد بن علي زين العابدين" في سنة (121هـ= 738م) حين سمت نفسه إلى الخلافة في عهد "هشام بن عبد الملك"، ولقي المصير نفسه "محمد بن عبد الله" المشهور بالنفس الزكية وأخوه "إبراهيم" في خلافة "أبي جعفر المنصور" العباسي.

وقد صهرت هذه المحن نفس "جعفر بن محمد بن علي بن زين العابدين"، وجعلته يضيق بالسياسة والتطلع إلى الولاية، ويتجه إلى العلم والمعرفة لا ضنًّا بحياته أو ضعفًا بقدراته، ولكنه كان يرى أن الخروج على الحاكم يؤدي إلى الفتنة العمياء، وارتكاب المظالم، وانتهاك الأعراض، وأخذ الناس بالشبهات.

وكانت نفس جعفر الصادق هادئة تميل إلى البحث والتأمل وتطيل النظر والتفكير، فكسبه بذلك ميدان العلم وحقق فيه من الشهوة وذيوع الصيت ما لم ينله كبار القادة والفاتحين.

المولد والنشأة

في المدينة المنورة كان مولد جعفر بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي في (8 من رمضان 83هـ= 5 من أكتوبر 702م)، وكانت المدينة موئل العترة من آل البيت، وفي وسط هذه الأجواء المعبقة بأريج النبوة نشأ جعفر الصادق نشأة كريمة في بيت علم ودين، وأخذ العلم عن أبيه محمد الباقر، وجده لأمه القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، المتوفى سنة (108هـ= 725م) أحد فقهاء المدينة السبعة المشهود لهم بسعة العلم والفقه.

كما اتصل بابن شهاب الزهري أحد فحول العلم وتتلمذ على يديه، ومن شيوخه في الحديث عبيد الله بن أبي رافع وعروة بن الزبير وعطاء بن أبي رباح ، ومحمد بن المنكدر، كما رحل إلى العراق طلبا للعلم، وكانت له عناية بالفقه وشغف باختلاف الفقهاء، ومعرفة مناهجهم، وتطلب ذلك منه معرفة واسعة بعلوم القرآن والحديث، والناسخ والمنسوخ.

معرفة بالكيمياء

كان لجعفر الصادق معرفة واهتمام بالكيمياء، واشتغل بها وبغيرها من العلوم الكونية الأخرى كالفلك وعلم الحيوان وعلم الأرض، ولا تذكر المصادر التاريخية عمن تلقى جعفر هذه العلوم، لكنها تذكر أن جابر بن حيان عالم الكيمياء المعروف تتلمذ عليه، فيقول ابن خلكان في وفيات الأعيان: ".. وله كلام في صناعة الكيمياء.. وكان تلميذه أبو موسى جابر بن حيان الصوفي الطرسوسي قد ألّف كتابًا يشتمل على ألف ورقة تتضمن رسائل جعفر الصادق"، ويذكر حاجي خليفة في كتابه "كشف الظنون" اسم جابر بن حيان مصحوبًا بعبارة تلميذ جعفر الصادق، ووضع محمد يحي الهاشمي كتابًا عن أثر جعفر الصادق في هذا الميدان بعنوان "الإمام الصادق ملهم الكيمياء".

ابتعاده عن السياسة

عاش جعفر الصادق بعيدًا عن غمار السياسة والدخول في متاعبها والاصطلاء بنارها، وهذا ما يفسر أنه ظل بعيدًا عن اضطهاد الأمويين والعباسيين لبعض رجال آل البيت، ممن تطلعت نفوسهم إلى منصب الخلافة وحاولوا نيلها بالقوة والسلاح، وعاش مكرمًا مبجلا على الرغم من شيوع الفتن والدسائس في عصره، ولم ينجرف إلى مناهضة الحكام حين حاول بعض الدعاة إغراءه، وإلى ذلك يشير الشهرستاني في الملل والنحل بقوله: "ما تعرض للإمامة قط، ولا نازع أحدًا في الخلافة، ومن غرق في بحر المعرفة لم يطمع في شط..".

وعلى الرغم من إعراضه عن تلك الحياة القلقة وركونه إلى ما هو أبقى وأخلد، فإن أبا جعفر المنصور الخليفة العباسي كان يتوجس منه خيفة لما رأى من التفاف الناس حوله وتقديرهم لعلمه ومكانته، ويبث من حوله العيون التي ترصد حركاته وسكناته، لكن الإمام الصادق كان بعيدًا عن كل شبهة، لا هم له سوى العلم والعبادة.

نشاطه العلمي

كان الصادق من الأئمة المجتهدين الذين يستخرجون الأحكام الشرعية من الكتاب والسنة غير تابعين لأحد في اجتهادهم، وكان صاحب منهج أصولي لاستنباط الأحكام، ومن مبادئه في التشريع أن الأصل في الأشياء الإباحة حتى يرد فيها نهي، وكان لا يأخذ بالقياس؛ لأنه رأي، وإنما يرجع إلى ما ورد في الأصل من الكتاب والسنة.

وتتلمذ على جعفر الصادق كثير من الأئمة الكبار، في مقدمتهم "أبو حنيفة النعمان" المتوفى سنة (150هـ=767م)، و"مالك بن أنس" المتوفى (179م= 795م)، وابنه "موسى الكاظم" المتوفى (183هـ= 799م)، و"سفيان بن عيينة" المتوفى سنة (198هـ= 814م)، وحدّث عنه كثيرون من أئمة الحديث، مثل: يحيى بن سعيد الأنصاري وابن إسحاق، وسفيان الثوري، وشعبة بن الحجاج، ويحيى القطان، وآخرين ذكرهم الذهبي في سير أعلام النبلاء.

والإمام جعفر ثقة عند أهل الحديث يقبلون حديثه، وثّقه الشافعي ويحيى بن معين وغيرهما، ويصفه ابن حبان بقوله: "كان من سادات أهل البيت فقها وعلمًا وفضلا، يحتج بحديثه من غير رواية أولاده عنه"، وأخرج له مسلم في صحيحه، وأصحاب السنن الأربعة: أبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه.

وكان جعفر يجل الصحابة أجمعين ويرفض سب أبي بكر وعمر، فيروي سالم بن أبي حفصة، وهو راو صدوق، قال: سألت أبا جعفر وابنه جعفر عن أبي بكر وعمر، فقال: يا سالم تولهما وابرأ من عدوهما، فإنهما كانا إمامي هدى. ثم قال جعفر يا سالم: أيسب الرجل جده؟ أبو بكر جدي، لا نالتني شفاعة محمد (ﷺ) يوم القيامة إن لم أكن أتولاهما، وأبرأ من عدوهما.

من وصاياه

ولجعفر الصادق حكم وأدعية أشبه بكلام النبوة، خرجت من نفس كريمة، وقلب مؤمن عظيم الإيمان، ورد كثير منها في كتب الشيعة، وروى بعضها الشهرستاني في الملل والنحل، والذهبي في سير أعلام النبلاء، من ذلك وصيته لابنه موسى، يقول فيها:

"يا بني، من قنع بما قسم له استغنى، ومن مد عينيه إلى ما في يد غيره مات فقيرًا، ومن لم يرض بما قسم له اتهم الله في قضائه، ومن استصغر زلة غيره استعظم زلة نفسه، ومن كشف حجاب غيره انكشفت عورته، ومن سل سيف البغي قتل به، ومن احتفر بئرا لأخيه أوقعه الله فيها.. يا بني، كن للقرآن تاليًا، وللسلام فاشيًا، وللمعروف آمرًا، وعن المنكر ناهيًا، ولمن قطعك واصلا، ولمن سكت عنك مبتدئًا...".

ومن كلامه: "لا زاد أفضل من التقوى، ولا شيء أحسن من الصمت، ولا عدو أضر من الجهل، ولا داء أدوأ من الكذب.

مؤلفاته

ينسب إلى الإمام الصادق عدد من الكتب لم يصل إلينا منها شيء، مثل: "كتاب الرد على القدرية"، وكتاب "الرد على الخوارج"، وكتاب "الرد على الغلاة من الروافض"، بالإضافة إلى بعض الرسائل التي كان يمليها على تلاميذه، ومنها وصاياه إلى ابنه موسى الكاظم، ورسالة في شرائع الدين، ورسالة إلى أصحاب الرأي والقياس، وتنسب إليه رسائل في الكيمياء جمعها تلميذه جابر بن حيان، وقد روت الشيعة عنه الكثير، حتى صنفوا من إجاباته عن المسائل كتبًا كثيرة سموها "الأصول"، فالمعروف أنه لم يرو عن أحد من أهل بيت النبي ﷺ ما روي عن جعفر الصادق.

وفاته

كان الإمام جعفر من أعظم الشخصيات ذوي الأثر في عصره وبعد عصره، وجمع إلى سعة العلم صفات كريمة اشتهر بها الأئمة من أهل البيت، كالحلم والسماحة والجلد والصبر، فجمع إلى العلم العمل وإلى عراقة الأصل كريم السجايا، وظل مقيمًا في المدينة ملجأ للناس وملاذا للفتيا، ومرجعًا لطلاب العلم حتى توفِّي في شوال من سنة (148هـ= 765م)، ودفن في البقيع مع أبيه وجده.

من مصادر الدراسة:

-

الذهبي شمس الدين محمد . سير أعلام النبلاء . تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرين . مؤسسة الرسالة . بيروت . (1410هـ= 1990م).

-

ابن خلكان . وفيات الأعيان . تحقيق إحسان عباس . دار صادر . بيروت . (1398هـ= 1978م).

-

محمد أبو زهرة . الإمام الصادق . حياته وعصره وآراؤه وفقهه . دار الفكر العربي . القاهرة . بدون تاريخ.

-

عبد الحليم الجندي . الإمام جعفر الصادق . دار المعارف . القاهرة . 1986م.

-

أحمد أمين . ضحى الإسلام . مكتبة النهضة المصرية . القاهرة . 1956م.